**المحاضرة الأولى:**

**الاستشراق، بحث في المصطلح و المفهوم**

**تمهيد**

الاستشراق تعبير يدل على الاتجاه نحو الشرق، و يطلق على كل ما يبحث في أمور الشرقيين و ثقافتهم و تاريخهم و حضارتهم.و يقصد به ذلك التيار الفكري الذي يتمثل في إجراء الدراسات المختلفة عن الشرق الإسلامي، و غير الإسلامي و التي تشمل حضارته و أديانه و آدابه و لغاته و ثقافته.

لقد أسهم هذا التيار في صياغة التصورات الغربية عن الشرق عامة وعن العالم الإسلامي بصورة خاصة،معبرا عن الخلفية الفكرية للصراع الحضاري بينهما.

و الاستشراق ظاهرة ثقافية و معرفية تغذيها عواطف اكتشاف ذلك المجهول الغامض المحاط بالرموز التي لا تقرأ أحرفها بسهولة، و الشرق هو ذلك المجهول في أعماق النفس الأوروبية، ليس مجرد كيان جغرافي بعيد... فالشرق في نظر الثقافة الغربية كون جديد و قارة غاضبة متحدية و ضفة شرقية منتصبة بكبرياء التاريخ كله، تقاوم كل تحد، و لا تستسلم.[[1]](#footnote-2)

**تعريف الاستشراق:**

**لغة :** مشتق من الشرق،و الشرق و المشرق بكسر الراء و بالفتح و هو القياس لكنه قليل الاستعمال.اسم الموضع أي جهة شروق الشمس. و السين في كلمة الاستشراق يفيد الطلب أي طلب دراسة الشرق. و قد تعرضت لفظة الشرق في أعقاب الفتوحات الإسلامية لتغيير آخر في معناها،فشملت مصر وبلدان شمال إفريقيا.

**اصطلاحا** :

هو علم الشرق أو علم العالم الشرقي،و هو علم يدرس لغات الشرق وتراثه و حضارته و مجتمعاته و ماضيه و حاضره، و تدخل ضمن معنى الشرق أي منطقة شرقية.

عرف المفكر الألماني(رودي بارت ) الاستشراق فقال:" كلمة استشراق مشتقة من كلمة (الشرق)، و كلمة شرق [[2]](#footnote-3) تعني مشرق الشمس،و على هذا يكون الاستشراق هو علم الشرق أو علم العالم الشرقي".[[3]](#footnote-4)لكن (بارت) يجد نفسه بعد ذلك في حيرة،فيتساءل: ما معنى كلمة(شرق)؟! فإن مفهوم هذه الكلمة يتغير تبعا لاختلاف المكان، و تبعا لتغير الأزمان. فالشرق يختلف بالنسبة للياباني أو العربي أو الألماني أو الإنجليزي أو الأمريكي.

إذا في اصطلاح العلماء فإن الاستشراق " هو علم يدرس لغات شعوب الشرق و تراثهم و حضارتهم و مجتمعاتهم و ماضيهم و حاضرهم"[[4]](#footnote-5)

و عليه فإن العلاقة وثيقة بين التعريفين اللغوي و الاصطلاحي، فقد أطلق على الدراسة التي تعنى بالعالم الشرقي مصطلح الاستشراق، و أطلق على الغربيين الذين يقومون بتلك الدراسات بالمستشرقين و هم جماعة المؤرخين و الكتاب الأجانب الذين خصصوا جزءا من حياتهم في دراسة وتتبع المواضيع التراثية و التاريخية و الدينية و الاجتماعية للشرق.[[5]](#footnote-6)

هذا هو الاستشراق بمفهومه الواسع، و هناك مفهوم خاص و يعني الدراسات المتعلقة بالشرق الأوسط لغته و آدابه و تاريخه و عقائده وتشريعاته و حضارته بوجه عام ، ويطلق على الذين يقومون بتلك الدراسات (المستعربين).[[6]](#footnote-7)

و الاستشراق أيضا هو دراسة غير الشرقيين لحضارات الشرق وأديانه و لغاته و تاريخه و علومه و اتجاهاته النفسية و أحواله الاجتماعية، وبخاصة حضارة الإسلام و أحوال المسلمين في مختلف العصور.

**حدود العالم الشرقي:**

الشرق يختلف بالنسبة لأهالي العصور القديمة و الوسطى أو للبشر في تاريخنا الحديث و المعاصر،و خاصة بعد اكتشاف الأمريكيتين. فقد كان البحر المتوسط في العصور الوسطى هو مركز الحياة في العالم، و كان هذا المركز هو الذي يحدد مفهوم كلمتي( شرق) و( غرب) ،ثم انتقل مركز الأحداث بعد نهاية هذه العصور الوسيطة إلى شمال غرب أوروبا، ثم اتسعت حدود العالم بعد قيام حضارات كثيرة راقية في القارتين الأمريكيتين، و أدى هذا الاتساع الجغرافي و الحضاري إلى تغير مضمون و مفهوم (الشرق).[[7]](#footnote-8)

لذا فتحديد أبعاد (الشرق) لا يزال غامضا و غير ثابت أو محدد. ولنا أن نتساءل: هل نقصد بكلمة( الشرق) مفهوما جغرافيا، أم حضريا؟ أي هل هناك حدود جغرافية واضحة ثابتة يمكن أن تضم أطراف الشرق؟ أم أن كلمة ( شرق) إنما تعبر عن صورة حضارية و أسلوب حياة له ما مميزاته وخصائصه التي تميزه عن غيره؟

الحقيقة أن أغلب الدارسين يرى أن مفهوم كلمة( شرق) لا يخضع لعامل جغرافي أو إقليمي، فالحضارة هي أساس المضمون و المدلول. فللشرق حضارته ذات الطابع المتميزالخاص ،مما يختلف كثيرا عن ألوان الحضارات الأخرى.

فمن يرحل بين الدول العربية، و الدول الإسلامية، ودول الشرق الأقصى و دول جنوب شرق آسيا يجد تقاربا كبيرا بين المجموعات البشرية الكثيرة التي تعيش في هذه الأراضي الشاسعة، قد يختلفون في صفاتهم الجنسية(العرقية) بحكم البيئة الجغرافية و في لغاتهم و أديانهم، ولكن أساليب الحياة والنظرة إليها قد تكون متقاربة.[[8]](#footnote-9)

لقد رأى كثير من المفكرين أن البيئة الطبيعية و الأحوال الجغرافية تؤثر في حياة الأمم و طبائعها، حتى إن البعض ذهب إلى أن الأمة وليدة البيئة الجغرافية. ومن هؤلاء(مونتسكيو) في كتابه ( روح القوانين)، فقد ذهب إلى أن البيئة تؤثر في أخلاق الأمة و سجاياها تأثيرا كبيرا، و حاول أن يعلل قيام النظم الديمقراطية أو الاستبدادية بالأحوال الطبيعية.

و قد حاول بعض الدارسين أن يوجد روابط سياسية و حضارية مستندة إلى روابط جغرافية، مثل الرابطة الشرقية، ورابطة البحر المتوسط... لكن الحقيقة أن الرابطة الشرقية ظهرت في يوم من الأيام،حينما أصبح الشرق معرّضا لأطماع الدول الاستعمارية الغربية،و رأى أبناء الشرق أن يتكاتفوا ويتقاربوا لمواجهة هذه الأطماع السياسية. كما أن الشرقيين أدركوا أيضا أنهم أهل الحضارة القديمة ، و أن بلادهم كانت قلب العالم القديم، و أنّ بينهم نزلت الأديان السماوية، ولكنّ لمعان الشرق القديم قد انطفأ ... و أصبح الشرق مجالا لأطماع الطامعين المستعمرين .وبذلك تكون هذه الرابطة الشرقية المقترحة هي نتيجة ظروف طارئة ذات طابع سياسي.[[9]](#footnote-10)

إن تحديد( العالم الشرقي )يشبه في صعوبته تحديد( العالم العربي) تبعا لاختلاف العصور و الأزمان... فالعرب يمثلون جانبا كبيرا من أهالي الشرق، و قد ارتبط تاريخ العرب بتاريخ الشرق قرونا طويلة، فمنذ الفتح العربي تعتبر مصر و بلدان شمال إفريقيا ضمن الشرق، و يختص الشرق حتى بشمال غرب إفريقيا الذي يسمى بالمغرب، أي بلد غروب الشمس، و إن كان اسم – الاستشراق- يفترض أنه يختص بالبلدان الشرقية دون غيرها.[[10]](#footnote-11)

إن وحدة التاريخ أو الوحدة النسبية تولد تقاربا في العواطف و النزعات و تماثلا في الأفكار و التقاليد و العادات، و الذكريات التاريخية تقرب النفوس و الأفكار و تكون بينها نوعا من القرابة المعنوية و هذه الوحدة التاريخية النسبية بين أبناء الشرق هي التي أعطتهم لونا و طابعا حضاريا واحدا.[[11]](#footnote-12)

فلقد كانت الحضارات في العالم قبل الفتوحات العربية الإسلامية متقاربة إلى حد كبير،فقد اقتبس الإغريق كثيرا من ألوان حضارتهم من المصريين والفينيقيين و الكلدانيين و الفرس. و عرف الرومان الحياة المدنية خلال صراعهم مع القرطاجنيين.

و حينما أصبحت الدولتان الفارسية و الرومانية أكبر دول العالم القديم،حدث امتزاج حضاري بين الدولتين رغم عدائهما وتنافسهما في مجالات السياسة، و كان الصدام الحربي من عوامل الاتصال الحضاري بين الفرس و الروم، و قد غزت كل دولة أراضي الأخرى.

ثم بدأت الفتوحات العربية، و حمل العرب الفاتحون الحضارة الإسلامية و اتصلوا بالحضارات العالمية الموجودة... و لم يجد العرب الفاتحون بأسا من اقتباس الحضارات المختلفة التي فتحوها، و لكن العرب – و هم العنصر القوي الفاتح- عدلوا هذه الحضارات بما يلائم الدين الإسلامي، و بما يتفق والعقلية و التقاليد العربية. و شمل اقتباس العرب من الفرس و الروم من جميع النواحي، سواء كان ذلك في نظم الحكم و السياسة، أو في الحرف والمهن أو في اللغة و الآداب، بل و في وسائل الترف و الزينة أيضا.[[12]](#footnote-13)

و قد لعبت اللغة العربية دورا كبيرا في مزج الحضارات و العناصر المتنافرة في المناطق المفتوحة. فقد أدى تعميم اللغة العربية في هذه الأقطار إلى اندماج الأجناس المغلوبة على اختلافها اندماجا قويا في الحياة القومية التي كان يحياها العنصر العربي الحاكم.[[13]](#footnote-14)

و أدى انتشار الإسلام أيضا إلى التزام و اندماج العرب بالعناصر الأخرى في المناطق المفتوحة. فقد منح الإسلام العناصر الإسلامية المختلفة ما تحتاجه من المثل العليا و التي منحتهم بدورها مشاعر مشتركة و آمالا واحدة.[[14]](#footnote-15)

فقد أصبحت الحضارة العربية الإسلامية تسود معظم أرجاء العالم القديم طوال قرون كثيرة، فامتدت في وسط آسيا، و شمال الهند و غرب و جنوب آسيا، و شمال إفريقيا و جنوب غرب أوروبا و جميع جزر البحر المتوسط. مما إلى وحدة حضارية عالمية،منحت هذه الأراضي الشاسعة لونا حضاريا متجانسا، ثم تقلص نفوذ العرب السياسي عن معظم أرجاء أوروبا،لكن ذلك لم يكن يعني نهاية الحضارة العربية في أوروبا.

**الشرق و الغرب:**

إن الفكر الغربي الأوروبي منذ نشأته في البيئة اليونانية اتخذ مسيرا يختلف جوهريا عن المسيرالعربي الإسلامي، ذلك لأنه خضع لقانون الصراع بين الأضداد الذي تمثل -على سبيل المثال- في الصراع بين فلسفة أفلاطون المثالية و فلسفة أرسطو المبنية على التجربة والحس. ثم ظهر الخلاف في بدايات العصر الحديث في الصراع بين المذهب العقلي لديكارت و المذهب التجريبي لجون أوك، ثم أفرز المجتمع الأوروبي الفلسفة المادية التاريخية التي وجدت في الصراع بين الأضداد في القانون الصارم الذي يوجه مسيرة التاريخ. [[15]](#footnote-16)

هذا من جهة و من جهة أخرى فإن الفكر الأوروبي و ما أنتج من حضارة استندت في أصولها على اليونان و الرومان و المسيحية فهي شرقية في جذورها. و قد ظل هذا الفاصل بين الواقع الأوروبي العلماني المعيش وبين المسيحية واضحا ظهرت معالمه في التاريخ الأوروبي حيث الصراع بين الكنيسة و الدولة و شؤون العقيدة و شؤون الحياة.[[16]](#footnote-17)

**المستشرق :**

إذا كان من العسير وضع تحديد ثابت لمفهوم كلمة( شرق) ،فإنه من الصعوبة بمكان أيضا تعريف ( المستشرق) تعريفا قاطعا شاملا. و لكن يمكننا القول إن" المستشرق هو عالم غربي يهتم بالدراسات الشرقية.

و المستشرقون هم جماعة من الكتاب و المؤرخين الأجانب الذين خصصوا جزءا كبيرا من حياتهم لدراسة و تتبع المواضيع التراثية والتاريخية و الاجتماعية للشرق الإسلامي،فصار من الضروري على هؤلاء أن يتعلموا اللغات الأصلية لهذا الجزء من العالم.

و هذه التسمية لا تعود إلى عهد قديم و إنما ترجع إلى نهاية القرن الثامن عشر حيث تشير الأبحاث إلى أن مفهوم (مستشرق)Orientalist) ) لم يظهر في أوروبا إلا نهاية القرن الثامن عشر. فقد ظهر أولا في إنجلترا عام 1779 و في فرنسا عام 1799،و أدرج الاستشراق(Orientalism)في قاموس الأكاديمية الفرنسية عام 1838.

فالمستشرق هو عالم غربي يهتم بالدراسات الشرقية. ولا بد أن يتوافر في هذا المستشرق الشروط الواجب توافرها في العالم المتخصص المتعمق حتى يفيد الحضارة و البشرية بإنتاجه العلمي.و لا بد أن ينتمي هذا العالم إلى الغرب و لو كان هذا العالم يابانيا أو أندونيسيا أو هنديا لما استحق أن يوصف بالمستشرق، لأنه شرقي بحكم مولده و بيئته و حضارته. و قد تكون الدراسات الشرقية التي يقوم بها المستشرق تاريخا أو فلسفة أو آثارا أواقتصادا و لكنها ترتبط بالشرق.[[17]](#footnote-18)

و ليس من الضروري أن يرحل هذا المستشرق إلى الشرق ليعيش فيه، أو ليتطلع بطباعه و حضارته، فقد يقوم بدراساته في جامعته الغربية، أو في وطنه. و إذا كان رحيله إلى الشرق يجعل دراساته أقرب إلى الواقعية والحقيقة. و ليس من الضروري أن يعتنق هذا المستشرق الإسلام أو أحد الأديان السائدة في الشرق، و إن كان الإلمام بها أو إجادتها يعينه كثيرا في دراسته و أبحاثه.

1. ينظرمحمد فاروق النبهان: الاستشراق تعريفه، مدارسه،آثاره،منشورات المنظمة الإسلامية للتربية و العلوم و الثقافة،إيسيسكو،2012،ص:08 [↑](#footnote-ref-2)
2. ينظر المرجع نفسه،ص11 : [↑](#footnote-ref-3)
3. نقلا عن المرجع نفسه،ص: 12 [↑](#footnote-ref-4)
4. عبد الجبار ناجي:تطور الاستشراق في دراسة التراث العربي،ص:23 [↑](#footnote-ref-5)
5. ينظر محمد حمدي زقزوق: الاستشراق و الخلفية الفكرية للصراع الحضاري،ص: 18 [↑](#footnote-ref-6)
6. فاروق عمر فوزي: الاستشراق و التاريخ الإسلامي( القرون الإسلامية الأولى) ،الأهلية للنشر و التوزيع،الأردن،ط1 ، 1998،ص:30 [↑](#footnote-ref-7)
7. المرجع نفسه،ص:12 [↑](#footnote-ref-8)
8. -علي حسني الخربوطلي: المستشرقون و التاريخ الإسلامي،الهيئة المصرية العامة للكتاب،1988،ص:17 [↑](#footnote-ref-9)
9. علي حسن الخربوطلي: المستشرقون و التاريخ الإسلامي، ص:13 [↑](#footnote-ref-10)
10. المرجع نفسه، ص: 14 [↑](#footnote-ref-11)
11. ينظر المرجع نفسه، ص: 18 [↑](#footnote-ref-12)
12. نقلا عن المرجع نفسه، ص:19 [↑](#footnote-ref-13)
13. توماس ارنولد: الدعوة إلى الإسلام، ترجمة حسن إبراهيم و آخرين،ص:68 [↑](#footnote-ref-14)
14. المرجع نفسه،ص:19، 20 [↑](#footnote-ref-15)
15. فاروق عمر فوزي: الاستشراق و التاريخ الإسلامي ( القرون الإسلامية الأولى)، الأهلية للنشر و التوزيع،الأردن،ط1، 1998ص،:27 [↑](#footnote-ref-16)
16. نقلا عن المرجع نفسه، ص: 27 [↑](#footnote-ref-17)
17. نفسه، ص 12 [↑](#footnote-ref-18)